بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعارف العلماءُ تقسيمَ المعارف الإنسانيةِ إلى دوائرَ وأقسامٍ واضحةِ المعالم، بيِّنة الحدود. وهم يقصدون، من وراء ذلك، تبسيطَ المعرفة بالعالم الطبيعيّ ـ المعقد اشدَّ التعقيد، المنظّم أعظم تنظيم، المملوء بالأسرار والمفاجئات ـ وتسهيلَ معرفةِ حدوده التي لا تنتظمها ضوابطٌ ما.

غير أن علينا أن نذكر ـ كما يقول الأستاذ بريرلى ـ أن هذه الأصول هي عملية مصطنعة؛ لأن كل دائرة للمعارف ـ ولا فرق في أن تكون من النوع الواسع، أو أن تكون من النوع الضيِّق المختص بمسألة واحدة فقط ـ لا تحيط سوى بجزء واحد، ووجه واحد للحقائق الكثيرة الموزَّعة هنا وهناك في ميادين الطبيعة. ومن أجل هذا، كان لزاماً علينا، عندما نركّز بحثنا في الدائرة التي أمامنا مباشرةً، أن ندرك أن بحثنا يتعرض لناحية واحدة من المسألة، وعلينا أن نوسعه بالاطلاع على أبحاث دوائر المعارف الأخرى ومصادرها، لكي نحصل على صورة مركَّزة بعض التركيز، كاملة نسبياً تحيط بالحقيقة كلها وتلمُّ بجميع أطرافها. ولا بدَّ لنا من تفهُّم صلة الماضي بالحاضر، ومن تلمُّس أثر هذا الحاضر في المستقبل.

« قد يخطر لك أن تصف شجرة مما يظهر من أقسامها أمام بصرك: فتصف الجذع والأغصانَ والورقَ والزهرَ والثمر. ولكن هذه الدائرة من المعرفة بالشجرة لم تبين لك سوى قسم من حقيقة حياة تلك النبتة؛

فالجذور الكامنة تحت الأرض ، والتربة التى نشأت فيها وتغذّت بعناصرها ، والماء الذى حلل تلك العناصر ، والهواء ونور الشمس اللذان لولاهما لما أتيح لها أن تتنفس وأن تنمو : كل هذه العوامل لم تدخل فى دائرة معارفنا الأولى ، بل كانت غائبة عن أعيننا عندما أخـــذنا فى وصف الشجرة من أجزائها الظاهرة للعيان . وصفوة القول إن الشجرة مرتبطة بألف حلقة من سلسلة تاريخها الماضى وظروفها الحاضرة ؛ وإن إدراك الإنسان لحقيقتها يتوقف على نسبة اكتشافه لتلك الحلقات ، ومقدار تفهمه لتلك الروابط والصلات ، وتقديره عِظَم تأثيرها فى ذلك الكائن الحى الذى لا يظهر منه للعينين سوى أقسام معينة » .

على أن هذا المثل قد يبدو لأول وهلة بعيداً عما نحن بصدد دراسته من النظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية (بتحديدها الواسع) وأشكال الحكومة والقانون . ولكن الواقع غير ذلك : إننا إذا اقتصرنا على وصف تلك النظم والمؤسسات من وجوهها البادية أمامنا ، نكون كمن اقتصر على وصف الشجرة مما بدا له من أقسامها الظاهرة . وليس بوسع الباحث أن يفهم نظاماً ما ، بَلْهَ أن يحكم بصلاح قانون أو عادة أو عرف ـ اجتماعى أو سياسى ـ قبل أن يُلِمَّ بجميع الظروف والأحوال والعوامل التى أدت إلى نشوئه وانتشاره فى الماضى ، وقبل أن يحيط بالقوى التى تؤثر فى وصفه الحاضر وتعدّل فى تقدير قيمته العملية فى المستقبل . وعلى الجملة علينا أن ندرس النموّ بالنسبة إلى حال الأرض التى نبت الشجر فيها .

دراسة العالم الذى نعيش فيه : لقد بيّن كاتب حديث هو ا . ل . روس ، فى كتيّب له سماه «فائدة التاريخ »[١] ، الأسباب التى تحتم دراسة التاريخ

---

١ - A. L. Rowse, The Use of History

للوصول إلى قصة الزمن الحاضر . إن الفائدة الرئيسية ، وليست هى الفائدة الوحيدة ، كما يقول هذا المؤلف ، من فوائد التاريخ ، أنه يؤهلك ـ أكثر مما يؤهلك أى نظام آخر ـ لأن تتفهم وتدرك قيمة الأحداث العامة والشؤون والنزعات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأيام التى تعيش فيها . ويتساءل الاستاذ روس بعدئذ ، وماذا قد يكون أعظم وأجل من ذلك ؟ لأنك إذا لم تفهم العالم الذى تعيش فيه تكون ولا شك دمية له يعبث بها ، وقد تصبح يوماً ما من ضحاياه الكثيرين . والتاريخ ، فى رأيه ، يبحث فى المجتمع الانسانى ، وفى قصته ، وفى الظروف والعوامل التى جعلت ذلك المجتمع فى وصفه الحاضر ؛ على أن معرفة الصورة التى كانت عليها المجتمعات الإنسانية فى الماضى ، وما أصابها من التطور ، يقدم لك مفاتيح العوامل التى تؤثر فيها ، ويوقفك على المؤثرات والمعوقات ، العامة والشخصية ، التى تصقل الأحداث وتركزها . إنك تبحث فى الطبيعة الانسانية كل الوقت .

إن موضوع هذا الكتاب هو فى « المدن الفاضلة » . وهو بحث فى طبيعة الإنسان . ولكنه بحث نظرى خالص . وعلينا أن نذكر عند النظر فيه أن العلماء الذين ألفوا موضوعاته لم يكتبوا فى لوح نظيف أبيض ، وإنما أملوا ما كتبوه تحت تأثير ظروف عصورهم العامة ، وشؤون حياتهم الخاصة . وليس فى الإمكان قطع صلة الحاضر بالماضى ، كما أنه من غير الميسور نقل أسس التفكير من عقل إلى عقل آخر ، ومن عصر إلى عصر آخر ، من غير أن تصيبها يد التعديل والتحوير .

أما الثورات التى حدثت فى التاريخ المدون فقد تثبت أن « اللوح » الذى رسمت عليه عوامل الأحداث الجديدة لم يكن نظيفاً أبيض تماماً . إن المؤثرات التى تكون الأنظمة الثورية الجديدة ، والسنن والعادات والتقاليد

السائدة وأخلاق الشعب ، والموارد الوطنية ، وأثر المناخ والعوامل الجغرافية الأخرى ، فى المغانم والمنافع الوطنية الدائمة ، والمواقع الستراتيجية ، والاحوال الاقتصادية وغيرها : ـ كل تلك العوامل تتجمع وتتحد لتقف فى وجه من يتوهم أن البداية الجديدة تعنى عالماً جديداً . إن الخلف دائماً يأخذ عن السلف ويغرف من بحره .

والواقع أننا كالشجرة ، أصولنا فى تربة التاريخ ، وتتحكم بنا الأحوال التى نولد فيها . غير أننا نستطيع أن نفعل أكثر من إغناء التربة بجثثنا بعد الموت ، لأننا لسنا شجراً أو نباتاً ، بل نستطيع أن نعمل على تغيير بيئتنا وعلى إنتاج أحوال وظروف لم تكن لأسلافنا وأجدادنا ، ولم يكن ليتوهمها أو يحلم بها أولئك الأسلاف والأجداد .

ولا يوحى إلينا التاريخ أن الإنسان هو مجرّد آلة صمّاء فى ميدان القوى الطبيعية ، لاحول له ولا طول أمامها ؛ فان فكرة كهذه بعيدة عن الحقيقة كبعد ذلك التوهم ـ القائل بأن الانسان يستطيع بإرادته أن يتحلل ويتحرر من تقاليد الماضى ومؤثراته ـ عن الواقع . ولم يبرهن لنا التاريخ وجوب « بقاء ما كان على ما كان » إلى مالا نهاية بل لقد أرانا النقيض من ذلك : أرانا أن أفعال الإنسان تؤثر فى مقدرات الإنسان ، بالرغم من تمسكنا بقاعدة الاستصحاب واعتبار أن الأصل بقاء ما كان على ما كان كبداية نسير منها فى البحث .

إننا نتعلم الكثير فى السياسة والقانون والاجتماع من الكتب العظيمة التى أُلفت فى الماضى عن هذه الموضوعات . بيد أننا لا نستطيع أن نفرز السمين فى محتويات تلك الكتب من الغث دون أن نحيط بالظروف التى كتبت فى أيامها . لأن أعظم أولئك الكتاب لم يكن إلا بشراً عاش فى عصر معين ، وفى بلد معين ، ولذلك فقد بنى كتابه على بيئته دون حاجة إلى

أن يصفها لمعاصريه لأنهم كانوا يعرفونها تمام المعرفة ؛ غير أننا نحن الذين نعيش فى عصر غير ذلك العصر ، وفى أرض غير تلك الأرض ، نحتاج إلى من يصف لنا تلك البيئة . وكلما زادت معرفتنا بذلك العصر وذلك البلد زاد إدراكنا لغاية المؤلف وموضوع الكتاب . والواقع أن الأحكام فى التاريخ تتغير بتغير الأزمان والأماكن .

ولنضرب مثلاً على هذا : عند ما كتب أفلاطون وأرسطو عن الدولة والقانون فكّرا فى الدولة والقانون على الوجه المعروف لديهما فى الدويلات اليونانية — المدن Polis — وإن ترجمة هذه الكلمة (المدينة) بالدولة هو خطأ شائع . إن الدويلة (المدينة) هى فى عرف العصر الحاضر مجتمع صغير ، ولكنها كانت فى عين أفلاطون وأرسطو مركزاً ملائماً لدراسة أصول الحكم والقانون . ولذلك فإن جميع نتائج دراساتهما مشوبة بتأثير هذا الافتراض . وإن كثيراً من نتائج تلك الأبحاث لا يمكن تطبيقه على دول العصر الحاضر ، مع أن القائمين بها لم يقصدوا تطبيقها عليها . والحال على هذا مع بقية المؤلفين العظام ؛ إنهم لم يؤلفوا للعصر الحاضر : ولكنهم كتبوا ـ عمداً أو عن غير قصد ـ على أساس المسائل التى سادت فى عصرهم وفى بلادهم .

ولكن ما دام علينا أن نأخذ بعين الاعتبار جميع هذه العوامل ـ الزمانية والمكانية ـ عند ما نقرأ المؤلفين القدماء ، فلنا أن نتساءل : لماذا نظل دائبين على دراستهم إذا كنا لا نجد فيها ما يستحق البحث والاستيعاب ؟ وإذا كان أولئك المؤلفون قد اكتشفوا حلولاً للمسائل التى صادفتهم فى السياسة وأصول الحكم ، أليس بوسعنا أن نضع حلولاً لمسائلنا من المؤلفات الحديثة ؟

لقد وضع الأستاذ (جلبرت موري) فى مؤلف حديث له اسمه (دراسات

إغريقية) سببين لرفض هذه النتيجة : الأول أن المسائل الفلسفية لا تقتضى حلولاً لها كما هى الحال فى المسائل العلمية ؛ وإنما يكفى فيها أن تُفهم وتُدرك . مثال ذلك أنك لا تجد حلاً نهائيا فى الفلسفة السياسية لطبيعة الالتزامات السياسية ، أو للعلاقة الصحيحة بين الفرد والدولة التى هو من رعاياها ، أو للمركز الذى يشغله القانون بالنسبة للحكومة . ليس بوسعك أن تحل هذه المسائل وأمثالها ، ولكنك تستطيع أن تفهمها وترفض الأجوبة الخاطئة بالنسبة اليها . وخير طريق لك هى أن تبحث هذه المسائل المرة تلو المرة بمساعدة العقول العامرة التى فكرت فيها فيما مضى من الأزمان

والسبب الثانى الذى جاء به الاستاذ (موري) هو أن علينا - إذا رغبنا فى أن نلم بالمسائل التى أمامنا بشكل واضح - أن نخرج من جوّ التقليد والعرف ، المحبوسة فيه جميع أفكارنا ، لأننا إذا نظرنا إلى كل المسائل الفلسفية الدائمة بمنظار المدنية الغربية الحديثة فحسب ، نكون قد قوينا أسوار ذلك الحبس . وخير طريقة لتحرير أنفسنا من هذا الميل وذلك الانحراف الملازم لبيئتنا أن ننظر إلى تلك المسائل بمنظار جديد ، وبطريقة غريبة عنا .

ومثل آخر على تأثير البيئة المحلّية أو البلد على البحث نستقيه من العصر الحاضر . إن تعريف الديموقراطية فى التمدن الغربى الحاضر هو غيره فى الكتلة الشرقية . فاذا راجعنا قاموس أكسفورد الانكليزى مثلاً نجده يعرّف الديموقراطية بأنها « حكومة من الشعب ، ذلك الشكل من الحكومة الذى تكون السيادة فيه للأمة كمجموع ، فتمارسها إما مباشرةً (كما كانت الحال فى بعض جمهوريات الاقدمين) أو بواسطة موظفين تنتخبهم . وفى الاصطلاح الحديث تعنى بشكل يكتنفه الغموض دولةً اشتراكيةً يتساوى الناس فيها بالحقوق ، دون أن تكون هنالك فوارق إرثية أو استبدادية فى الطبقة أو الامتيازات » . أما ساسة روسيا السوفيتية فيستعملون هذه الكلمة

فى التعبير عن معان غير هذه : لقد جاء فى خطاب للمسيو (فيشنسكى) نائب كوميسير الشؤون الخارجية السوفيتية : « إن الديموقراطيين هم أولئك الذين حبسوا جهودهم على خدمة الشعب ، وهم الذين على استعداد لأن يضحوا بحياتهم ، الذين يعملون من أجل الشعب ؛ من أجل الفلاحين ، والعمال والمثقفين ، ويعملون من أجل أولئـــك الذين يخلقون بعملهم وكدحهم الطيبات والأشياء التى لهم الأولوية باستعمالها » .

وهـذا التعريف يجعل التمييز بين نوع الحكم الديموقراطى والأنواع الأخرى متوقفا على الغرض الذى تستخدم فيه سلطات الحكومة ؛ بينما نجد التعريف الغربى لهذا المصطلح يشير إلى طريقة تأليف تلك السلطات .

ولندع الآن هذه الأبحاث العامة لنتقدم إلى بحث « المدن الفاضلة » التى أفردنا لها فصول هذا الكتاب .

إن كل الدراسات الحديثة الصحيحة فى أصول علم السياسة تبدأ باليونان بوجه عام وبجمهورية أفلاطون بوجه خاص . هنالك ترجمات انكليزية كثيرة للجمهورية ، منها ترجمة (جويت) ودكتور (كورنفورد) . وهناك ترجمة عربية واحدة للشيخ الجليل حنا خباز ؛ وقد اعتمدنا عليها وراجعنا أرقاماً منها على الترجمات الانكليزية . ولا تكاد تخلو لغة من اللغات فى العالم من ترجمة هذا التراث العظيم . وقد يكون كتاب الجمهورية فى مجموعه قطعة أدبيـة خالدة ، أو أنه ـ كما وصفه سير فردريك پولوك ـ إنتاج عبقرى للخيال الفلسفى أكثر منه بحثا فى علم السياسة .

إن مؤسس علم السياسة الحقيقى هو أرسطو . أما أفلاطون فقد اتخذ أسلوباً متمائلاً فى تحليله حياة الانسان الخاصة ، والمسائل العامة على السواء ، بينما كان أرسطو أولَ من فصل بين الأخلاق والسياسة ، وأفرد كتاباً لكل من هذين العلمين . على أنه ليس بوسع أحد أن يُنكر الصلة بين

الأمرين . وقد يكون الاتصال فى عهد الدويلات اليونانية وأيام أفلاطون واضحاً أكثر منه اليوم . ومع ذلك فان الموضوعين ليسا سواءً ، كما أن اعتبارنا الدولة كالفرد — كما فعل أفلاطون — يؤدّى بنا إلى التشويش ، فننحرف عن سواء السبيل .

إن العجز عن التمييز بين الدولة والمجتمع فى العصور الحديثة ، وإن الاعتقاد بأنه ليس ثمة حدود لسلطان الدولة لأنها تقوم من تلقاء نفسها بكل ما تراه مناسباً أو ضرورياً للحياة الرغيدة ، هو أصل أركان الديكتاتورية الحديثة Totalitarianism وعلى ذلك ، وفى الواقع ، علينا أن نعترف بأن نظرة اليونان إلى الدولة كانت ديكتاتورية ؛ من أجل هـــذا قد يتساءل المرء ، وله ملء الحق فى هذا التساؤل ، لماذا ما تزال النظريات الإغريقية فى السياسة ، تشغل مركزاً جليلاً فى الدراسات الحديثة ؟ والجواب على ذلك أن وجه التشابه بين الديكتاتوريات الاغريقية والديكتاتوريات الحديثة هو سطحى فقط ، وقد نشأ من طبيعة المدينة اليونانية (PoLis) . لقد جوّز اليونان « للمدينة » أن تمتد بسلطانها إلى جميع مناحى الحياة دون أن يضحوا بالفرد فى سبيل ذلك كما فعلت الديكتاتورية الحديثة ؛ ذلك لأن المدينة كانت صغيرة يقيم فيها مجتمع قليل عدد أفراده ؛ ولأن الحكومات جعلت للرعية مطلق الحرية فى أن يعيشوا كما يشاءون وتشاء لهم أحوالهم .

مما تقدم تتبين لنا قيمة دراسة كتاب الجمهورية لافلاطون ، وهو أول كتب المدن الفاضلة التى عرفها التاريخ . أما الثـــانى من تلك الكتب فهو « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى . وقد أسهبنا فى وصف العصر الذى وضع فيه المؤلف كتابه ، وبيان أحوال العالم الاسلامى يوم كتب ذلك الكتاب . لقد سار الفارابى فى كتابه على أسلوب علماء القرون الوسطى فمزج بين الفلسفة الالهية والاخلاق والسياسة ؛ ووضع تعليلاً للنبوّة ـ قال :

« وذلك أن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان ما قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من الخارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا أخذ منها للقوة الناطقة . . . لا يمتنع أن يكون الانسان ـ إذا بلغت قوته المتخيلة (على هذا الوجه) نهاية الكمال ـ يقبل فى يقظته عن العقل الفعّال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، أو محاكياتها من المحسوسات ، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها ، فيكون له بما قبله من المعقولات نبوّة بالأشياء الإلهية ».

ومدينة الفارابى التى تخيّلها تسير على النظام الديكتاتورى : هنالك رئيس له صفات الامامة الشرعية كاملة ـ ودونه قوم مرءوسون منه ويرؤسون آخرين . . « ويصير الرئيس بما يفيض من العقل الفعال إلى عقله المنفعل حكيماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبياً منذراً بما سيكون ومخبراً بما هو الآن » .

لقد اختار الفارابى أول رئيس لدولته نبياً حكيماً ، ويؤخذ من أوصافه أنه قصد به رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يقيد خلفاءه بالشريعة ، وإنما جعل لهم الخيار فى توزيع العدل على الرعية كما يختارون . إن الرئيس الذى يجمع بين النبوّة والحكمة لم يوجد على الأرض بعد محمد رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولذلك فانه لا بدّ لسعادة البشر من التمسك بالمبادئ لا بالأشخاص ؛ ولا بدّ إذاً من الخضوع إلى شريعة يحتكم اليها الخاصّ والعام فتساوى بينهم فى الحقوق والواجبات . ولا تحقق المدينة الفاضلة هذا للناس كافة ، ولا تضع ضماناً لحرياتهم .

وكذلك نرى أن حكومة الرئيس الفيلسوف هى لون من الحكم أحط من حكومة الشريعة والقانون . لأن الرعية فيها يقفون موقفاً سلبياً لا يقومون إلا بما يأمرهم به الرئيس ، بينما فى حكومة الشريعة تتعاون الرعية

على بلوغ السعادة للدولة ورعيتها ولا يتوقف بلوغها على صلاح الرئيس أو فساده بل على تعاون الأمة جميعاً تعاوناً وثيقاً مستهدفاً خيرها .

والمدينة الثالثة من المدن الفاضلة التى خلدها التاريخ هى (يوتوبيا) التى ألفها سير توماس مور . لقد عاش مور فى القرون الوسطى : ومن العسير أن يبسط المرء قاعدة عامة استنبطت من مجرى التفكير فى تلك العصور ، لأن ذلك قد يوهم الباحث بأن الناس فى تلك الأيام اعتنقوا مذاهب فكرية متماثلة . ومهما يكن من أمر فان من الحق أن يقال إن المفكرين فى القرون الوسطى — ومن جملتهم سير توماس مور — آمنوا بحقيقتين جوهريتين فى الفكر السياسى : أولاهما أن سلطان الدولة هو محدود دائماً ، وأن السلطة العليا والسيادة فى الدولة هى للقانون ، ويجب أن تكون دائماً كذلك . والفكرتان متصلتان ببعضهما ، غير أننا سنتحدث عن كل منهما فيما يلى :

لقد كانت القرون الوسطى معارضة للديكتاتورية . ولم يكن فى الإمكان أن تكون تلك العصور على غير ذلك . لأن السلطة كانت موزعة فى كل مكان بين قوتين : القوة الروحية والقوة الزمنية . إن النزاع الطويل بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة قد أخمد أنفاس الديكتاتورية ، ولم يمكنها من رفع رأسها عالياً . ومهما يختلف الناس فى حدود منطقة نفوذ كل من هاتين المنظمتين فان الحاجة كانت ماسة فى النظام الاجتماعى لكليتهما ، وكان بديهياً أن لا تنفرد إحداهما عن الأخرى باحقيتها بولاء الناس جميعاً خالصاً لها من دون الأخرى .

أما سيادة القانون فقد كانت تعنى أن القانون هو الذى عين حقوق الحاكم . لقد وجد بين حكام تلك الأيام من طغى وتجبر على الرعية ، ولكنه لم يكن ليدعى أنه يقوم بأعمال الجور والطغيان إنفاذاً لحكم القانون . وقد كان الرأى الإجماعى السائد آنئذٍ أن القانون هو الذى أوجد الحاكم ،

وليس — كما ادّعى بعض الحكام المستبدين فيما بعد — أنهم هم الذين أوجدوا القانون . والواقع أن القرون الوسطى لم تنظر الى القانون كمجموعة وضعها بعض الناس عن عمد وتصميم ، وإنما كانت تعتبر منهاجاً حوى حقوق الناس وواجباتهم على وجه العدل والإنصاف ورثه المجتمع عن أسلافه الغابرين .

ولعل ما يقابل سيادة القانون هذه ، فى العصور الحديثة ، هى الدساتير فى البلاد المختلفة المتمدنة .

ونحن نقف الآن فى إشارتنا إلى المدن الفاضلة الثلاث التى أفرد لها هذا الكتاب . ونرى لزاماً علينا قبل أن نختم هذه المقدمة أن نشير إلى مدينتين فاضلتين أخريين فى التاريخ : أولاهما مدينة الشمس [١] تأليف كامپانيلا ، والثانية مغامرات تيليماك تأليف فينيلون [٢] .

تعتبر مدينة الشمس من المدن الفاضلة لأنها تصور دولة مثالية فيها شبه كثير ، وخلاف كثير ، لما فى المدن الفاضلة الأخرى . كان كامپانيلا راهباً دومنيكياً عاش بين سنة ١٥٦٨ وسنة ١٦٣٩ وعُذِّب عذاباً لم يُعذَّب به أحد ؛ وقضى فى غيابة السجن زمناً طويلا . وكتب « مدينة الشمس » فجاءت قطعة أدبية تسرد ما عاناه فى حياته ، ووصفاً خيالياً لما تركه شقاء تلك الحياة وتعاستها من ردّ الفعل فى نفسه . لم يعترف مؤلف مدينة الشمس بالملكية الفردية فى مدينته . وقال بشيوعية الأموال والنساء . وأشخاص الرواية هم أربعة : الرئيس واسمه (هوه) ومساعدوه الثلاثة وهم الأمراء (پون) و (سين) و (مور) . ويقابل هؤلاء من الصفات أن ما يأمر به (هوه)

---

١ — The City of the Sun, Campanella.

٢ — Les Aventures de Télémaque, Fénelon.

يوافق عليه مساعدوه الثلاثة . وهذا طبعاً من الصفات الملازمة للديكتاتورية ولعل المسائل التالية هى أبرز ما فى الكتاب :

يبحث كامپانيلا بوضوح فى الصراع بين الغرائز الفـــردية والغرائز الاجتماعية ، ويدلل على أن الغرائز الفردية ليست مجرّد أنانية تطيب لنفس الفرد ولكنها متأصلة فى الأسرة .

« يقولون إن كل الأموال الفردية قد أحرزهـا الناس وحسّنوا فيها كيما يكون لكل منهم بيت وزوجة وأولاد . إن الأثرة وحب الذات ينشآن من هنا . ذلك لأننا كلما رفعنا ولداً إلى مركز الغنى والشرف ، وأغدقنا الأموال على الوارث ، نكون على استعداد : إما لأن نعتدى على أموال الدولة ، إذا لم نخف من القوة التى تسيطر على الغنى والشرف ؛ وإما لأن نكون بخلاء متمارين . ولكن إذا أزلنا من الوجود الأثرة وحب الذات لم يبق أمامنا سوى حب الدولة [١] » .

وإلى جانب هذا نجد فى كامپانيلا بحثا مستفيضاً فى علم التوليد وعقيدة فى أن الأولاد الذين تنجبهم الرعية هم للدولة ومن أجلها ، ولا يختص بهم الأبوان دون الدولة . « إنهم يسخرون منا ويهزأون بنا لأننا نهتم بأصول وعراقة خيولنا وكلابنا ونهمل أصول السلالات البشرية [٢] » .

« إن التصرُّف على الرعية منوط بمصلحة الدولة ولا يستهدف منفعة الأفراد فقط ؛ وإنه يجب علينا أن نطيع الشرائع الطبيعية وهى تنكر أن للمرء الحق الطبيعى أن يعترف بفروعه ويعلمهم ، وأن يستعمل زوجته وبنيه وأولاده ، كما لو كانوا خالصين له من دون الناس . لأن الشرائع تقول

---

١ — The City of the Sun, p. 225.

٢ — » » , p. 224.

إن الأولاد ينجبون لحفظ النوع وليس للذّة الفردية ، كما بسط هذا الرأى سانت توماس [١] » .

والدولة مسؤولة - على حـــد قول (مور) (الحب) - عن تعليم الأولاد ، « لأن الأفراد - على الغالب - يُنجبون الأولاد خطأ ويعلمونهم خطأ [٢] » .

والمسألة الأخرى البارزة فى مدينة كامپانيلا هى نظرته إلى العمل . يلغى كامپانيلا فى كتابه الرق والاستعباد ويُمجِّد جميع أنواع الأعمال . ويحدد ساعات العمل اليومى بأربع فقط ، على أن تُقضى بقية ساعات اليوم بالتعلم المبهج .

وأخيراً فلنبحث فى (مغامرات تيليماك) تأليف فينيلون : إن هذا الكتاب رواية تربيوية أُلِّف بادئ الأمر لتعليم دوق برجاندى الشاب . وقد مزج فينيلون فيه الأساطير الكلاسيكية بالدروس الخلقية والسياسية .

يُقسم الكتاب إلى مدينتين فاضلتين ، الأولى (لا بيتيك [٣]) والثانية هى مدينة (سالنت [٤]) .

إن بلاد (لا بيتيك) السعيدة قد حبتها السماء بموقع عظيم ومناخ ليس له مثيل على اليابسة أو فى البحر . سماؤها صافية جميلة ، وشتاؤها دافىء ، وصيفها منعش وهواؤها عليـــل . وفصولها طول السنة ازدواج الخريف بالربيع . ومن أجل ذلك فان الأرض تنتج محصولين فى السنة . وأطراف الطرقات مغطاة دائماً بالأشجار الخضراء ، وقمم وسفوح الجبال تغص دائماً

---

١ - The City of the Sun p. 235.

٢ - » » p. 236.

٣ - La Bétique

٤ - Salente

بالأنعام . ومن المسلم به أن الناس الذين يعيشون فى مثل تلك الأحوال تلبسهم السعادة من الرأس إلى أخمص القدم . ولكنهم مع ذلك يقنعون بالحياة البسيطة ويستخدمون الفضة والذهب ـ وهو كثير عندهم ـ فى صنع المحاريث ونظراً لأن مناخ بلادهم جميل فهم لا يحتاجون إلى بناء بيوت يأوون اليها ، وإنما يقضون أيامهم ولياليهم فى العراء أو فى الخيام ؛ ولا يخيطون ثياباً أو يلبسونها لأنه لا حاجة لهم بها . ولا يقتسمون الأرض لأنها مشاع بينهم . ولا يشربون الخمور أو يُسعرون الحروب . وإن فضائلهم لا حدّ لها . والواقع أن فينيلون قد أخذ أوصاف جنات عدن التى وعد الله بها المتقين فأسبغها على (لا بيتيك) .

لقد قال أحد أعلام الأدب الافرنسى إنه يجب للتلذذ بكتاب فينيلون هذا أن يقرأ فى أيام الشباب البريئة [1] »

أما مدينة (سالنت) فانها تتضمن إرشادات لعودة الدولة إلى الحالة السعيدة . تُمنع التجارة الخارجية فى الكماليات ، تتلف أدوات الزينة الذهبية والفضية . . . وفى النتيجة يبدأ السالنتيون ـ الذين شكوا فقرهم فى السابق ـ يشعرون بالرخاء والسعادة . لأنهم قد أعيدوا إلى الأرض التى بقيت بوراً زمناً طويلا ، وعُزِّزوا بسكان آخرين جُلبوا من الدول المجاورة ليساعدوهم فى الأعمال الصعبة . وقد جبيت منهم ضرائب بسيطة وشُجِّع الزواج بينهم

« لم تكن الأرض أبداً ناكرة للجميل ؛ إنها تغذى دائماً بأثمارها أولئك الصالحين الذين يفلحونها بعناية ؛ وإنها تمنع خيراتها عن الذين يضنون عليها بجهودهم . وكلما ازداد عدد أولاد العمال ازداد ثراؤهم . . . لأن الأولاد يبدأون بمساعدة ذويهم منذ نعومة أظفارهم » .

---

١ - Dans l' innocence de la Première Jeunesse

وخلاصة ما رأى فينيلون أن يقدّمه إلى ملك فرنسا فى المستقبل هو : ان الترف ضارٌّ مضرّ ، وان البساطة فى الحياة أمر مرغوب فيه ، وان الزراعة الناجحة هى من مقوّمات الدولة القوية ، وإن غاية سياسة الدولة يجب أن تكون إيجاد عدد عظيم من السكان يعيشون فى المزارع لا فى المدن

وإنا نكتفى بهذا الحدّ من التحدث عن « المدن الفاضلة » فى التاريخ . مع أن هناك مدناً أخرى حديثة قد أغفلنا ذكرها . « وإن المدن التى تحدّثنا عنها ليست فى الواقع نقداً موجهاً إلى الحكومة القائمة والأنظمة الاجتماعية بقدر ماهى نقد موجه إلى الطبيعة الانسانية . إن الانسان أنانى لدرجة أنه يؤثر زوجه وأولاده على أزواج الآخرين وأولادهم . إنه أحمق وطماع ومختال فخور مندفع وراء الشهوات » .

وقبل أن أختتم هذه المقدمـــة أرى أن أشيد بفضل المؤلفات التى اعتمدت عليها فى هذا البحث . لقد أشرت إلى كثير منها فى أماكنها من فصول الكتاب . غير أنى أسجّل هنا تقديرى لكتاب الاستاذ جراى (السُّنة الاشتراكية [١]) ؛ والى الفصل الذى كتبه الأستاذ بريرلى فى كتاب (القانون والحكومة [٢]) عن الديموقراطية وفصول أخرى من الكتاب عينه ؛ وإلى كتاب أوجبرن ونيمكوف فى (علم الاجتماع [٣]) ؛ وكتاب (علم الاجتماع للقرن العشرين) وقد اشترك فى تأليفه عدد كبير من علماء الاجتماع تحت إشراف جيرفتش ومور [٤] .

---

١ - The Socialist Tradition, by Alexander Gray.

٢ - Law and Practice, Editor, Prof. T. L. Brierly.

٣ - A Handbook of Sociology, by Ogburn, and Nimkoff.

٤ - Twentieth Century Sociology, by G. Gurvitch, and W. Moare.

إن « المدن الفاضلة » التى تضمّنها هذا الكتاب خيالية ؛ وقد كنت أرجو أن أضمّ اليها مدينة حقيقية جمعت الفضل كله وهى مكة المكرمة ، ولكننى لم أتمكن حتى الآن من جمع كل المواد المتصلة بها ، ولعلى أوفق فى إفراد بحث خاص لها فى المستقبل إن شاء الله .

القاهرة فى ١٢ ربيع الأول ١٣٧٠
وفق ٢٢ ديسمبر ١٩٥٠

محمد يونس الحسينى

obeikandl.com